شعراء معاصرون :

العاطفة الدينية في شعر محرم

للشيخ محمد رجب البيومي

— ١ —

منذ انتقل إلى جوار ربه الشاعر الكبير المغفور له الأستاذ أحمد محرم وأنا أشعر بحماس يدفعني إلى الكتابة عن عاطفته الدينية ، فقد قرأت الكثير من روائعه المبدعة ، فلمست فيها روحاً حية متوثبة ، وكان للنغم الساحر الذي تردده قيثارة الشاعر روعة عجيبة ، فهو يرتفع بالقارئ إلى أفق رحب فسيح ترفرف فيه أجنحة الفضيلة والعزة ، ويذكره بما كان للأمة العربية في عهدها الغابر من مجد باذخ قامت دعائمه على البسالة والكرامة فيحرك العاطفة ويوقظ الشعور ...

والحق أن دراسة محرم رحمه الله من ألزم اللوازم في عصر ماجن مستهتر ، فقد عصفت برءوس بعض الشعراء في الشرق والغرب نوازع خبيثة تدفعهم إلى الفوضى الخلقية والتحلل الإباحي ، زاعمين أن الشاعر الحق هو الذي ينساب وراء غرائزه وميوله ، وأن العبقرية توقع صاحبها في مزالق مريبة ، بل إن منهم من يتعمد الوقوع في البغي ليكون أحد هؤلاء المباقرة المتحللين ! ! وكم جر الاستعمار الغاشم على أبناء الشرق فضائحه وغوائله ، فزين لهم الخبيث ، وبغض إليهم الحسن الجميل ! .

نشأ الشاعر في بيت ريفي متدين فقد كان والده حريصاً على تثقيفه وتهذيبه ، فأحضر له في دور الطفولة من قام بإرشاده وتوجيهه لحفظ القرآن ودرس النحو والعروض والقافية ، وأكب على استظهار النصوص الأدبية ، ففتحت أكمام شاعريته الغضة ، وبدأ ينفق بمقطوعات بدائية تنبيء عن ملكة واستعداد ، وقد اتجه بنوع خاص إلى الثقافة الدينية فقرأ الحديث الشريف ، وطالع السيرة المطهرة ودرس التاريخ الإسلامي المجيد ، ثم عكف على قراءة الصحف والمجلات فألم إلماماً مفيداً بسياسة أمته ووطنه ، وشاهد في ميعة صباه مايديره المستعمرون من مكايد خاتلة للعالم الإسلامي ، فتأوه لمصابه الفادح ، وأطلق لشاعريته العنان فتغنى بمجد الإسلام وحث على استرجاع ما فقده الشرق من عظمة شاهقة وجاه عريض .

وإذا كنا نعتبر محرماً شاعر العاطفة الدينية في عصره دون منازع فإننا نتخذ منه دليلا يبطل ما زعمه الأصمعي من أن الشعر في جلته مكسب صعب لا يسهل إلا في الشر ، وتلك دعوى زائفة وجدت مكانها في العقول لخلوات أنظار الشعراء عن الدعوة إلى المثل العليا ، والتمدح بالأخلاق الدينية الرفيعة ، وأنت تطالع الدواوين الشعرية فتجد ما قيل في المجون والخلاعة أضعاف ما قيل في التصون والاحتشام وبديهي أن الشاعر المتمكن المطبوع يستطيع أن ينظم — بقوة وإتقان — في شتى الأغراض التي تأخذ بمجامع قلبه ، وتسيطر على خوالج نفسه ، سواء كانت تتجه إلى الخير أو الشر ، فالدار إذن على قوة الشاعر وموهبته ، ومن يستطيع نظم الرقائق الفاتنة في الليل الدامس ، لا يعجزه أن يرسم الصور الساحرة للصباح الوضيء ، وها هو ذا محرم قد اندفع وراء عاطفته الدينية اندفاعاً حميداً ، فجاء شعره وذجاً حسناً للشعر المثالي الرصين .

ونحن حين نشيد باتجاه محرم وجهة الخلق والدين ، لا نعني بذلك أنه عقد في ديوانه فصولا خاصة بالدعوة الإسلامية ، ولكننا نؤكد أن عاطفته الدينية قد ارتسمت بوضوح في شتى الأغراض الشعرية التي تحدث عنها الشاعر الكبير ، فأنت تقرأ مدائحه ومراثيه واجتماعياته وسياسياته فتجد كل بيت ينطق بإيمان قائله ، ويحدد الهدف الخلاق الذي يدعو إليه في حرارة ، وإذا رزق الشاعر إيماناً فلا بد أن ترتسم في مرآة شعره ، فهو إذا جال في إحدى سبحاته سيطرت عليه عاطفته المخلصة ، فوجهته أكمل توجيه حتى يصل إلى المرفأ الأمين .

وكنت سألت من أثق بهم من خلطاء محرم ورفقائه عن حياته وأخلاقه فسررت بما علمت من مروءته ونبله ، حيث كان يبذل ما يملك — على ضآلته — في معونة المستهين ، كما كان يحافظ على فرائض العبادة من صلاة وصيام . ثم هو إلى ذلك صفوح متسامح لا يؤاخذ مسيئاً بنقيصة ، ولا يميل إلى الجدال والمثرثرة في غير طائل . ويمكننا أن نقول إنه اتخذ كتاب الله إماما يأتمر بأوامره ،

وبعيد عن نواهيه ، وإنه ليعلن ذلك في صراحة إذ يقول :

أقول لصاحبيّ — وعاهداني — كتاب الله بينكما وبيني
فكونا صادقين ولا تخونا فإن لنا لإحدى الحسنيين
ولست ببائع نفسي وديني ولو أوتيت ملك المشرقين
لهذا سلطة ولتلك أخرى فما بالي وبال السلطتين
سأملأ هذه الغبراء عدلاً وأترك أهلها صفر اليدين
على التاريخ بعد الموت حق وعند الله يوم الدين ديني

وقد أباح الشاعر لنفسه أن يتمدح بمروءته وتقواه ، ولسنا نؤاخذه في ذلك فقد نشأ في عهد إباحي ، وجد فيه من يتشدقون بآثامهم الخزية ويجاهرون بمشائمهم المندية ، فإذا ألم بهم داع إلى الحق لووا رءوسهم ساخرين !! فلا مناص من أن يجاهر المهذب العف بشمائله ، ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . ولقد صوّر الشاعر أخلاقه ، وشرح عواطفه تشريحاً صادقاً حين قال :

من أيادي الله أني لم أخن عهده الأوفى أروم المغنما
راودتني عصبة عن حقه فأبى العرق الكريم المنتمى
عفة تقذف بي عن همة تقذف النسر وترى الرزما
لا أرى الغدر وإن جشمني صرف دهر غاشم ما جشما
مرحباً بالبؤس في أسبابه عفة البائس عن أن يأثما
ما يريد الدهر من مستبسل ما يهول الخطب إلا اقتحما

وسنوجز الحديث إيجازاً ، فنترك كلام الشاعر عن نفسه ونميل بشيء من التحليل إلى بعض الأغراض الشعرية التي جال في حلبتها جولات موفقة . وفي رأيي أن قصائد محرم السياسية والاجتماعية والتاريخية تكفي الباحث المنصف في تكوين رأي صادق في عاطفته الإسلامية ، ونبدأ بالحديث عن سياسياته فنقول :

— ٢ —

كان للخلافة العثمانية في أواخر القرن الماضي ، وأوائل هذا القرن ظل يتبسط على الدول العربية المتجاورة ، ولئن تغلغل النفوذ الاستعماري في شتى بقاع الشرق حقباً متوالية ، فقد كان أبناء هذه الدول ينظرون إلى الخليفة العثماني نظرة عالية ، فيرون طاعته فرضاً أكيداً يوحيه الإسلام وتمليه العقيدة ، ورغم ما اشتهر به عبد الحميد من العسف والجور والخروج على شرعة الإنصاف فقد لهج بمدحه كثير من الأدباء والشعراء ، إذ كانوا يصرفون النظر عن شخصه ويرون الخليفة فكرة رمزية تقيم العدل وتجدد معالم الدين ، وقد تفانى محرم — جرياً وراء عاطفته الدينية — في محبة الأتراك فمنح خلفاءهم الود وهاجم أعداءهم بقذائفه الصائبة . وأنت تقرأ مدائحه في السلطان العثماني فتجده ينظر إليه من نافذة العقيدة ، فيذكره بمركزه الديني ومقامه الإسلامي ثم يدلف إلى تقديم نصائحه التقليدية فيحث على الوحدة القومية ، وينادي بالجامعة الإسلامية ، وكان للمعارك الحربية التي خاضها الجيش العثماني صدى تردد في نفس الشاعر ، فسجل الوقائع اليونانية ، وندد بمن يهددون « الرجل المريض » بالثورات الداخلية والفتن الخارجية ، وقد اعتمد الشاعر على خياله البعيد ، فبالغ في مدح الجنود الأتراك مبالغة تدعو إلى العجب ، وكأنه أراد أن يقوي الروح المعنوية في الشعوب الإسلامية بجوف الحقائق تمويهاً يناقضه الواقع ، وهو بلا شك مشكور لغيرته وحميته ، وإلا فهل كان الجيش التركي في رمقه الأخير كما قال فيه ؟

لهم كل يوم غارة تسبح المدى وأخرى تغشى الليل والليل فاحم
إذا نفروا لم ينفروا عن شمالها ولم يصحروا عن سيلها وهو عارم
بنوها الألى لا يرهبون بها الردى إذا اهتزمت في حافتيها الزمازم
إذا أقدموا لم يثنهم عن مقادم غداة الوغى أهوالها والمآزم
مصمون فيها يخولون إذا اعتزوا نمتهم قريش في الحفاظ وهاشم
أولئك أبطال الخلافة تحتمي بأسيافهم إن داهمتها المظالم
هم المانعوها أن يقسم فيئها وأن تستبى بيضاتها والمحارم
هم الناس لا ما تنكر العين من قذى وتوشك أن تنشق منه الحيازم
وما الملك إلا ما أطالت وأثلت طوال العوالي والرقاق الصوارم

ولقد ظل الشاعر على إخلاصه للدولة العثمانية ، يمجد في أعلامها ويسهب في الثناء على مواقفها ، وينذر الثوار الداخلين فيذكرهم بمسئوليتهم الفادحة أمام الله إذ يشعلون التوغى بلا موجب ، ويوقدون الفتنة في ربوع مضطربة تعصف بها الرياح الهوج .

وكم كان الألم لاذعاً في نفس محرم حين طوى بساط الخلافة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وقد أفزعه اضطهاد الكماليين

رجال الفقه والتشريع ، ونقل إليه ما ارتكبوه من غلو فاحش ، حيث وأدوا العاطفة الدينية في وقت أصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر . وأذكر أنه نظم في سقوط الخلافة ملحمة طويلة طبعت وحدها في كتاب مستقل ، وكان يهمني أن أستشهد ببعض أبياتها الدامعة ، لولا ضياعها من يدي . ولا أدل على حماس الشاعر للأتراك العثمانيين من قصيدته المؤثرة في رثاء والده ، فقد نسي مصابه الشخصي ، وغالبته عاطفته الدينية فترك الأنين والدموع واندفع إلى الحديث في الخلاف القائم بين العثمانيين والإنجليز ، ولك أن تقدر مدى شعور مسلم غيور ، هاجت عاطفته الدينية فأنسته ما وقع فيه من أسى قاتل ، وحزن مبير

هذا وسياسيات محرم تتسم بطابعها الإسلامي فدائحه في الرسول ، وتذكير بالآداب الخلقية ، ورجوع بالأمة إلى ماضيها المجيد ؛ وقصائده في الحرب العالمية الأولى تنديد بالحضارة الغربية المتوحشة ، وتصوير صادق للمسارح الدولية التي تراق فيها الدماء وتتناثر عليها الأشلاء . هذا إلى مقارنة معتدلة بالحضارة الإسلامية في عهدها الزاهر ، وكيف كانت مناراً شع على العالم بضوئه الوهاج . وحين قامت الحرب الطرابلسية الإيطالية صرخ محرم صرخات مؤرقة ، ولم يشأ أن يقصر شعره على البربرية الإيطالية المتوحشة ، فيكتفي برسم الفظائع الدامية التي ارتكبها المحتلون بالشعب الأعزل المستكين ، بل غمره شعوره الديني في طوفان جارف صخاب ، فتمثل البيت الحرام يرجف رعباً بمكة ، ويثرب ذات القبر الطهور تولول جازعة ؛ ثم استصرخ الغر الميامين من أبطال الإسلام ، فتساءل عن علي بن أبي طالب ، وتطلع إلى خيل الله يقدمها صاحب اللواء ، وتذكر ابن الخطاب في فتوحاته الشاسعة وحن إلى القادمين من فهر ومضر وقريش . اسمعه يقول:

أين ابن عم رسول الله يطفئها حرباً على كبدي من نارها شرر
أين اللواء وخيل الله يرسلها عمرو ويقدم في آثاره عمر
أين القادمين من فهر ومن مضر ومن قريش وأين السادة الغرر
أين الملائكة الأبرار يقدمهم جبريل يستبق الهيجا ويبتدر
أين الوقائع تهتز العروش لها رعباً وتنتفض التيجان والسرر
أين القياصر مقهورين لا صلفا نأى بجانبهم عنا ولا صعر
أيطرب البيت أم تبكي جوانبه حزناً ويعول فيه الركن والحجر
ويح الحجيج إذا جاءت مناسكهم ماذا يرى طائف منهم ومعتمر
أين الحماة وقد ضاعت محارمنا أين الكماة وأين القادة الغير

وهكذا كان التذكير بالماضي سلاحاً باتراً في قبضة الشاعر ، والحق أنه آتى أكله وأثمر في حينه فوثقت الأمم العربية بماضيها المجيد ، بعد أن حاول الاستعمار الغاشم أن يبرزه في صورة نكراء .

وطبيعي أن يكون ندب الماضي البهيج مقروناً بالتحسر على الحاضر الأليم ؛ فالصورة الجميلة المشرقة لا تكمل لها أسباب الروعة إلا إذا قرنت بصورة دميمة بشعة ، وحالة الشعوب الإسلامية قد بلغت من الهوان مبلغاً يستدر الدموع ، فكانت الشكوى من انحطاط الشرق ميداناً فسيحاً تجول فيه الأقلام حتى ليجوز لنا أن نعتبره عنصراً هاماً من عناصر الشعر الحية في نهضتنا الحديثة . ومعلوم أن الشعور بالنقص هو الدافع الأول إلى الكمال والتقدم ، فلا مناص إذن من الاعتراف بالواقع الأليم . وكم تضرع محرم إلى ربه راجياً أن يأخذ بيد أمته إلى طريق البر ، وكم سهر الليالي الطويلة يتأمل فيما خيم عليها من غواش حالكة ؟ وكم وقف بين اليأس والأمل لا يدري أيبتسم الدهر للشرق أم تكون الأخرى فيظل الكابوس الأوربي جاثماً فوق صدور المسلمين ؟ ! عواطف مشتجرة متناحرة خلقتها الروح المتوثبة في نفس الشاعر فصيرته في حيرة من أمره إذ يقول :

تفاقمت الخطوب فـــلا رجاء وأخلفت الظنون فلا وثوق
تطالعنا السنون مروعات ونحن إلى أهلتها نتوق
يمر العهد بعد العهد شراً فأين الخير والسعد الأنيق
نوائب روع التنزيل منها وضج القبر والبيت العتيق
بنا من شارب الحدثان ما لا يطيق مضاءه العضب الذليق
كأن جراحه في كل قلب شفاه المنية أو شقوق
رويد البوم والغربان فينا أما يغني النعيب ولا النعيق
وددنا للتواعب لو عمينا وصمت من مسامعنا الطروق
أمض قلوبنا داء دخيل وهم في جوانحنا لصيق
وجف الريق حتى ود قوم لو أن السم في اللهوات ريق
ويرح بالترائب مستطير يساوره التميز والشهيق

ولولا هذه الصيحات المدوية ما استيقظ أهل الكهف في